الفصل الثالث

رؤية ابن خلدون في سنن قيام الحضارات وسقوطها

قيام الحضارات عند ابن خلدون

الأسباب السياسية لقيام الحضارات عند ابن خلدون

يرى ابن خلدون أن الإنسان اجتماعي بطبعه، ولا يستطيع أن يعيش منفردًا، ولابد له من الاحتكاك بغيره من الناس سواء في شكل أسرته أو أفراد قبيلته، وأن نشأة الحضارة وتكوين الدولة لا يرجع بالضرورة إلى فطرة المجتمع نحو العيش المشترك والتعاون، بل إلى وجود صاحب قدرة وقوة يستطيع عن طريقها إقناع الأفراد بالتعاون ويجمع كلمتهم حتى يصلح حالهم ويقيموا مجتمعًا سياسيًّا، وبصفة عامة يخضع ابن خلدون الحضارة في تطورها إلى أطوار خمسة[١]:

١. طور النصر والاستيلاء على الحكم من أيدي حاكم أو دولة سابقة.
٢. طور الفراغ والدعة لتحصيل ثمرات الملك، وفيه تسود الراحة والطمأنينة.
٣. طور الاستبداد والانفراد بالسلطة والتنكر لأهل العصبية.
٤. طور القناعة والمسالمة، ويكون الحاكم خلاله قانع بما ورثه عن سابقيه.
٥. طور انقراض الدولة وزوالها نتيجة الإسراف والتبذير.

---

(١) بركات، نظام وآخرون: **مبادئ علم السياسة**، مكتبة العبيكان، الرياض، ط٣، ٢٠٠٣م، (ص٨٥-٨٦).

obeikan.com

وأهم الأسباب السياسية لقيام الحضارات عند ابن خلدون:

أ. فكرة العصبية والدولة

العصبيـة عند ابن خلـدون هي الرابطة الاجتماعية التي تربـط أبناء القبيلة، أو أي جماعـة أخـرى مع بعضهم بعضًـا، وتجعلهم يتعاونون ويتكاتفون في الشـدة والرخاء. وقد لاحظ ابن خلدون أنها تكون قوية كل القوة في البداوة، وهي السبب الأبرز في التنازع بين القبائل المختلفة، ويزول هذا التنازع بين القبائل البدوية بتأثير الدعوات الدينية، وتظهر بـدلًا منهـا قوة عظيمة لا يقف في طريقهـا عائق، وتتجه نحو البلاد المتحضرة لتأسيس دولة وحضارة جديدة. كما أن هذه العصبية تضعف من جراء انغماس أصحابها في ترف الحضـارة، وقياسًـا على ذلك، تعد العصبية شـرطًا أساسـيًّا لقيام الحضارات وتأسيس الدول وقيام الملك والخلافة[١].

ودور العصبيـة فـي تكويـن الحضارة عنـد ابن خلدون يرجع إلـى أن العصبية تمكن من توافر سـلطة سياسـية قادرة -على الأقل في عنفوان دفعتها الأولى- على إنشاء أسرة فـي مسـتوى الأحداث تلعب دورًا رئيسًـا فـي الدولة، وتصلح ما حرف فيهـا، فتؤدي بذلك رسالتها الحضارية والأخلاقية، وإذا كانت العصبية ضرورية لتأسيس السلطة وامتدادها والحفاظ عليها، فهي كذلك ضرورية لضمان استمرارية الحضارة[٢].

والعصبيـة هـي القـوة المحركـة للدولـة، بداية مـن الظفر والاسـتيلاء علـى الملك وانتزاعه من أيدي الدولة السالفة، ومرورًا بمرحلة الاستقرار التي تمكن الدولة تدريجيًّا

---

(١) عبدالقادر، سالمة محمود محمد: **منهجية ابن خلدون في تدوين السيرة النبوية وتفسيرها**، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٠م، (ص١٦١-١٦٢).

(٢) الحبابي، محمد عزيز: **الديناميكية المحركة للتاريخ عند ابن خلدون: الفكر الاجتماعي الخلدوني المنهج والمفاهيم والأزمة المعرفية**، سلسلة كتب المستقبل العربي (٣١)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط٢، ٢٠٠٨م، (ص٩٦).

من الاستغناء عن العصبية والتي تتمكن الدولة خلالها في خضم ثورة مجددة تنبثق منها نخبة وقيادات جديدة للمجتمع، لها مزاج واحد وفلسفة واحدة يؤمن أصحابها بالمثل العليا وبالقيم الروحية، ويطمحون إلى تجسيد حلم وبناء جديد، ونهاية بتحقيق الهدف المنشود وهو إقامة حضارة بعد المرور بطور الاستبداد والفراغ والدعة، وتكون هذه الحضارة هي بحد ذاتها بداية للمرحلة الثانية؛ وهي مرحلة الهدم[١].

والدولة عند ابن خلدون هي الامتداد المكاني والزماني لحكم عصبية ما، بمعنى امتداد الدولة في المكان أي مدى نفوذها واتساع رقعتها، أما الامتداد الزماني فيعبر عن مختلف المراحل التاريخية التي يجتازها حكم العصبية الحاكمة من يوم استلامها السلطة إلى يوم خروجها من يدها[٢].

أي إن نشأة الدولة عند ابن خلدون تعني: قيام عصبية تمتلك أسباب القوة بالعناية بسياسة المجتمع وترتيب علاقات أجزائه في شكل نظام يعين الحقوق والواجبات إما بالعرف والعادة، وإما بالغلبة والاستبداد[٣].

ب. تماسك العصبة ووحدة هدفها

يشير ابن خلدون إلى أن المجد نتاج جماعي، فإذا كان المجد مشتركًا بين العصابة وكان سعيهم له واحدًا، كانت هممهم في التغلب على الغير والذب عن الحوزة أسوةً في طموحها وقوة شكائمها ومرماهم إلى العز جميعًا يستطيبون الموت في بناء مجدهم ويؤثرون الهلكة على فساده[٤].

---

(١) شعبان، جمال: **قراءة جديدة في فكر ابن خلدون: فكر ابن خلدون الحداثة والحضارة والهيمنة**، سلسلة كتب المستقبل العربي (٥٤)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٧م، (ص٨٣).

(٢) الجابري: **فكر ابن خلدون: العصبية والدولة معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي**، (ص٢١١).

(٣) سعادة، أنطون: **الأعمال الكاملة: نشوء الأمم**، دار سعادة للنشر، بيروت، ١٩٩٩م، (ج٥-ص٩٠).

(٤) طعمة، نبيل: **في أصول العمران والتلاقح الاجتماعي**، دار الناقد للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠٧م، (ص١٥٥).

ويرى ابن خلدون أن الغاية التي تسعى إليها العصبية هي الملك، والعصبية تكون بها الحماية والمدافعة والمطالبة وكل أمر يجتمع عليه، فالبشر بطبيعتهم الإنسانية يحتاجون في كل اجتماع إلى وازع وحاكم يدفع بعضهم عن بعض، فلا بد أن يكون متغلبًا عليهم بتلك العصبية، وإلا لم يقدر على ذلك، وهذا التملك هو الملك، وهو أمر زائد على الرئاسة؛ لأن الرئاسة هي سؤدد وصاحبها متبوع، وليس له عليهم قهر في أحكامه، بخلاف الملك الذي يعني التغلب والحكم بالقهر، وصاحب العصبية إذا بلغ رتبة طلب ما فوقها، فإذا بلغ رتبة السؤدد والاتباع ووجد السبيل إلى التغلب والقهر لا يتركه لأنه مطلوب للنفس. كما أن القبيل الذي يتكون من عدة قبليات وعصبيات، يستدعي وجود عصبة أقوى من العصبيات كلها لكي تغلبها على أمرها جميعًا وتستتبعها وتلتحم العصبيات جميعها فيها، وتصير كأنها عصبية واحدة كبرى، وإلا وقع الافتراق المفضي إلى الاختلاف والتنازع[١].

ج. قوة اللحمة وخشونتها

يرى ابن خلدون أن قوة اللحمة وتماسكها وعدم انجرافها وراء جمع المال أو المصالح الخاصة يحافظ على تماسك الحضارة وقوتها، ولذلك كان الخلفاء الراشدون لا ينظرون إلى الدنيا وملذاتها وشهواتها، فأسهم زهدهم وورعهم وابتعادهم عن الشهوات والملذات في اتساع رقعة الدولة الإسلامية وانتشار الحضارة الإسلامية وسيطرتها على الشرق والغرب، وذلك لعدم وجود صراع على المصالح الخاصة، ما جعل القائمين على الحكم جماعة واحدة متجانسة يطغى فيها (الأنا الجمعي) ويسيطر فيها (الأنا العصبي) على (الأنا الشخصي)، فالعصبية تخدم المجموعة، والعصبية ليست هي النسب، بل هي ثمرته، وثمرة النسب تنضج وتؤتي أكلها حين تكون هناك حاجة إلى

---

(١) ابن خلدون، عبدالرحمن: **مقدمة ابن خلدون**، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط١، ٢٠٠٩م، (ص١١٠).

التضامن والتعاضد من أجل حفظ البقاء أو من أجل السعي نحو مستقبل أفضل أو من أجل توطيد أركان الحكم في الدولة الناشئة[١].

د. استقرار الرئاسة

يرى ابن خلدون أن الرئاسة إذا استقرت في أهل النصاب المخصوص بالملك في الدولة وتوارثوه واحدًا بعد آخر في أعقاب كثيرين ودول متعاقبة نسيت النفوس شأن الأولية، واستحكمت لأهل ذلك النصاب صبغة الرئاسة، ورسخ في العقائد دين الانقياد لهم والتسليم، وقاتل الناس معهم على أمرهم قتالهم على العقائد الإيمانية، ويكون استظهارهم على سلطاتهم ودولتهم المخصوصة إما بالموالي والمصطنعين الذين نشؤوا في ظل العصبية وغيرها، وإما بالعصائب الخارجين عن نسبها الداخلين في ولايتها[٢].

هـ. عدم وجود حواجز بين الحاكم والرعية

أشار ابن خلدون إلى أن عدم وجود حواجز بين الحاكم والرعية ومعرفته بكل صغيرة وكبيرة في الدولة، والعدالة والمساهمة في حل مشكلات الرعية من العوامل التي تسهم في ازدهار الحضارة وانتشارها واستمرار الدولة وبقائها، لأن ذلك يجعل الرعية يلتفون حول ملوكهم، وتحيا ضمائرهم، ويحرصون على حياة ملوكهم ومعونتهم، وينصرونهم في مواطن الحروب والمدافعات، فهنا تسهم العدالة والمساواة ومراعاة شؤون الرعية في إضافة عصبات قوية للحاكم تساعده على إدارة شؤون البلاد واستمرارها وازدهار الحضارة بها[٣].

---

(١) الجابري: **فكر ابن خلدون: العصبية والدولة معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي**، (ص٢٣٥).

(٢) ابن خلدون: **مقدمة ابن خلدون**، (ص١٢٢).

(٣) المصدر نفسه، (ص١١٢).

و. قلة القبائل والعصائب الموجودة بالدولة

يرى ابن خلدون أن قلة القبائل التي تقطن الدولة وكذلك قلة العصائب يمنح الأسرة الحاكمة قدرة أكبر على الحكم والسيطرة والتحكم في هذه القبائل، خاصة إذا كانت الأسرة الحاكمة ذات عصبية أكبر وأقوى، وهذا يجلب نوعًا من الأمن والاستقرار وازدهار الحضارة وتطورها في هذه الدولة؛ نتيجة قلة الخلاف وعدم قدرة القبائل القليلة على الانتفاض على الدولة أو الخروج عليها[١].

ويرى الباحث أن الأسباب السياسية لقيام الحضارات عند ابن خلدون تأخذ الصبغة الإسلامية البحتة، حيث إن التعاون والتضامن هو سبيل نجاح السيطرة على الدولة وحكمها، والسيطرة على شعبها عن طريق العصبية التي يتمتع بها الحاكم، ويمكن تقوية هذه العصبية عن طريق التقارب بين الحاكم والمحكومين، بإشاعة العدل والاستقرار في أرجاء الدولة، ما يترتب عليه تطور الحضارة وانتشارها، وهو ما يرسخ لمبدأ (دولة الظلم ساعة، ودولة العدل إلى قيام الساعة).

الأسباب الاجتماعية لقيام الحضارات عند ابن خلدون

يرى ابن خلدون أن الأسباب الاجتماعية تلعب دورًا مباشرًا في قيام الحضارات، حيث إن التماسك الاجتماعي بين أفراد الأسرة الحاكمة، وقوة العلاقات ومتانتها، وعدم تسلل الخلاف بينهم يؤدي إلى قوة نظم الحكم، ويبدد الرغبة في الاستقلال بأمور الدولة، ومن ثم الفرقة والتشرذم الذي يؤدي في الغالب إلى نهاية الحضارة وانفراط عقدها.

وأهم الأسباب الاجتماعية لقيام الحضارات عند ابن خلدون:

---

(١) المصدر نفسه، (ص١٣٠).

أ. الولاء للسلطة الحاكمة

الولاء للسلطة الحاكمة عند ابن خلدون لا يقتصر على ولاء الأهل والأقارب أو العائلة الحاكمة، ولكن أيضًا على ولاء أفراد الشعب، لأن عدم ولاء أفراد المجتمع للسلطة الحاكمة وخضوعها لها نتيجة الخوف من البطش والتنكيل، يجعل الشعب لا يساند السلطة الحاكمة ولا يقف معها عند النوائب والشدائد، بل قد يساعد الأعداء على زوالها. كما أن وحدة المصلحة وإخضاع القبائل المجاورة من أهم عوامل استقرار الحكم، وكلما زادت اللحمة الاجتماعية استقرت الدولة وحافظت على سيطرتها على أقاليمها وعلى العصبيات التي سبق أن قهرتها وأخضعتها لحكمها. ويترتب على الاستقرار رواج التجارة والصناعة وانتشار الحرف وتطورها، ومن ثم زيادة العمران الاجتماعي والتطور الحضاري[١].

ويمكن تحقيق الولاء للسلطة الحاكمة عن طريق[٢]:

أ. قدرة الحاكم على المحافظة على الوحدة والانسجام داخل الحكم وخارجه.

ب. تمكن الحاكم من المحافظة على ولاء القبائل الأخرى المتحالفة معه أو الخاضعة لسلطانه بالقوة والغلبة من جهة أخرى.

ب. بطء ظاهرة الحراك الاجتماعي

يشير ابن خلدون إلى أن بطء ظاهرة الحراك الاجتماعي من أسباب استقرار الحضارة ونمائها وتطورها، لأن ظاهرة الحراك الاجتماعي تتضمن الصراع بين الطبقات، فكل طبقة اجتماعية تسعى للحصول على حقوق متساوية للطبقة التي تعلوها،

---

(١) الجابري: **فكر ابن خلدون: العصبية والدولة معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي**، (ص٢٣٥).

(٢) الويسي، ياسين حسين: **ابن خلدون ونظرته في التصوف: دراسة تحليلية مقارنة**، دار نينوي للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠٩م، (ص٢٢).

وحين تتساوى معها في الحصول على الحقوق نفسها، تطالب بحقوق أكبر في ضوء عصبيتها وقوتها وكثرة عددها، حتى تحصل على هذه الامتيازات، ويحصل الصراع نتيجة الحراك الاجتماعي، وينقسم المجتمع على نفسه ويترتب عليه زوال الحضارة واندثارها. فالبدو أناس لا تتعدى أمورهم الدنيوية تلبية احتياجاتهم الأساسية، فطبيعتهم محمية من العادات المشوهة، وهم أقرب إلى حالة الفطرة، فهم يتقبلون -بسرعة- الحقائق الدينية، والإرشاد والحق، والتعاون فيما بينهم يتسم بالقوة بسبب سيادة روح العصبية وروح الجماعة، فالطبيعة البدوية هي الأقرب إلى طبيعة الإنسان الخيرة، ولذلك فإن الاحتفاظ بالطبيعة البدوية يساعد على حفظ الأمن والاستقرار ونمو الحضارة وازدهارها في ضوء قلة متطلبات المعيشة لدى البدو وعصبيتهم التي تساعد على مواجهة المخاطر والحروب والتصدي لها، ومن ثم التمكين للحضارة[١].

ج. الحتمية الطبيعية (الحاجة إلى وجود حاكم)

يرى ابن خلدون أن الملك حتمية طبيعية مثل لواء يجتمع الناس تحت قيادته، وأن التشرذم والاختلاف وسيلة من وسائل إضعاف الملك وإحداث الفوضى التي تبدد الأمن والاستقرار، فالخضوع للحاكم -وإن كان ظالمًا مستبدًا- أفضل من التعرض للحروب والصراعات التي تنتهي بتدمير المجتمع، وتشريد أبنائه وقتلهم وسلب أموالهم ومتاعهم خلال الخلافات والصراعات التي لا تنتهي. وعلى ذلك فالحاجة إلى وجود حاكم قوي من أهم الحاجات الاجتماعية لتنظيم أمور الحكم في الدولة، وتنظيم التعاملات بين أفراد المجتمع، وإنفاذ القوانين والتشريعات، حيث أشار ابن خلدون إلى أهمية وجود

---

(١) الذوادي، محمود: **أضواء على مفهوم الطبيعة البشرية في الفكر الخلدوني: الفكر الاجتماعي الخلدوني المنهج والمفاهيم والأزمة المعرفية**، سلسلة كتب المستقبل العربي (٣١)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٨م، (ص١١٠-١١١).

حاكم بوصفه وسيلة لنشأة الحضارات وتطورها[١]، وفي هذا يقول: «ثم إن هذا الاجتماع إذا حصل للبشر كما قررناه وتم عمران العالم بهم، فلابد من وازع يدفع بعضهم عن بعض، لما في طبائعهم الحيوانية من العدوان والظلم، وليست السلاح التي جعلت دافعة لعدوان الحيوانات العجم عنهم كافية في دفع العدوان عنهم لأنها موجودة لجميعهم، فلابد من شيء آخر يدفع عدوان بعضهم عن بعض... فيكون ذلك الوازع واحدًا منهم يكون له عليهم الغلبة والسلطان واليد القاهرة، حتى لا يصل أحد إلى غيره بعدوان، وهذا هو معنى الملك»[٢].

د. التمسك بعادات العامة وتقاليدهم

يرى ابن خلدون أن الاستقرار الاجتماعي اللازم لتحقيق أمن الدولة وما ينتج عنه من حضارة لا يتحقق إلا باستمرار العامة على العادات والتقاليد التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم، فالمجتمع يسير على قوانين ثابتة لا تتغير، وهو يتكون من العامة، والعامة لا يقبلون أي تغيير لعاداتهم وتقاليدهم التي ورثوها، وإذا جاءهم أحد بما يخالف تلك العادات ثاروا عليه وحاربوه، فالمجتمع لا يخضع للأفكار الفردية أو الأهواء الخاصة، وإنما يجري على سنن محتومة تنبثق من عادات العامة وأساليب تفكيرهم[٣].

ويرى الباحث أن الأسباب الاجتماعية لقيام الحضارات عند ابن خلدون تأثرت بالمجتمع القبلي القرشي، فحين جاء الإسلام وحرم عبادة الأصنام وتجارتها، وشرب المسكرات والزنا وغيره لقي محمد ﷺ الرفض والنبذ، وعذب أصحابه، وأخرجته قريش وحاولت قتله، لأن قريشًا رفضت قبول القيم الجديدة، وفضلت اتباع عادات آبائهم

---

(١) الساعاتي، سامية حسن: **ابن خلدون مبدعًا: قراءة جديدة لفكره ومنهجه في علم الاجتماع**، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٦م، (ص١٨٨).

(٢) ابن خلدون: **مقدمة ابن خلدون**، (ص٤٣).

(٣) الوردي، علي: **منطق ابن خلدون**، شركة دار الوراق، بيروت، ط٣، ٢٠١٣م، (ص٢٣٤-٢٣٥).

وأجدادهم وتقاليدهم، واعتبروها مصدر رزق ومعيشة لهم. وهذه الاتجاهات الرافضة للقيم الجديدة لم تؤثر على قيام الحضارة العربية، بل كانت العصبية واللحمة سببًا من أسباب قوة الحضارة العربية، وصمودها وانتشارها بحد السيف في ضوء اتحاد العصبية واتحاد الولاء والانتماء تحت راية الإسلام الذي هذب النفوس، واستغل ذلك الاتحاد في فتح مشارق الأرض ومغاربها.

الأسباب الاقتصادية لقيام الحضارات عند ابن خلدون

يرى ابن خلدون أن الأسباب الاقتصادية تلعب دورًا مباشرًا في قيام الحضارات، حيث إن مظاهر البداوة والخشونة هي التي تدفع البدو إلى السيطرة على الحضر والهجوم عليهم والاستيلاء على مدنهم وثرواتهم، فسوء الحالة الاقتصادية عند ابن خلدون هي من أهم أسباب نشأة الحضارات عن طريق الاستيلاء على حضارة قريبة ووراثتها والاستفادة منها.

وأهم الأسباب الاقتصادية لقيام الحضارات عند ابن خلدون:

أ. الخشونة

تتسم حياة البدو بالخشونة والقسوة وقلة ذات اليد، ولذلك يسعون لقتال أهل المدن والاستيلاء على ثرواتهم والتنعم بها، وهم في هذه الحالة يقاتل كل منهم من أجل المجموع دون الحصول على أجرة معينة، إلا أنهم يسعون للحصول على الغنائم وتوزيعها عليهم وهو ما يزيدهم حدة في القتال. كما أن البدو حين يسيطرون على المدينة، لا يفرضون ضرائب، ويكتفون بالمصادر الطبيعية لأنهم لم يكونوا قد ألفوا مظاهر الأبهة والعظمة التي تمتع بها حكام المدن وسلاطينهم، ولا يعرفون الضرائب أو فرضها أو مصادرة أموال السكان أو احتكار التجارة وغيرها، فيمثل العامة إليهم وتتوطد أركان دولتهم، وتتغير طبائعهم وتميل إلى الدعة والحضارة المفسدة للعمران. فقلة التكاليف

اللازمة لمعيشة البدو قد تكون سببًا من أسباب نشأة الحضارة نتيجة توفير الأموال اللازمة للإنفاق على مجالات التنمية[١].

ب. تسخير العامة

يشير ابن خلدون إلى أن تسخير العامة للقيام بالأعمال والمهام الخاصة بالحكام وأعوانهم توفر الأموال اللازمة للتنمية، ولكن يشترط أن يكون هذا التسخير لصالح المجموعة، لا لصالح فئة معينة؛ لأن ذلك يجلب الحقد في نفوس العامة ويكون من أدعى المفاسد المدمرة للحضارة والعمران[٢].

ج. اتساع أقاليم الدولة

يرى ابن خلدون أن اتساع أقاليم الدولة يمكنها من تنوع الإنتاج وزيادة التجارة بين تلك الأقاليم، إذا ضمن حدًّا من الأمن والاستقلال والسيطرة على الأقاليم، وهذه العوامل تؤدي إلى الرواج الاقتصادي، وتوافر الأموال اللازمة لتشييد الحضارة[٣].

د. الثراء

يرى ابن خلدون أن الثراء من أهم أسباب قيام الحضارات؛ لأنه يوفر الأموال اللازمة للبناء والتشييد، فالأمة إذا تغلبت وملكت ما بأيدي أهل الملك قبلها كثر رياشها ونعمتها فتكثر عوائدهم، ويتجاوزون ضرورات العيش وخشونته إلى نوافله ورقته وزينته، ويذهبون إلى اتباع من قبلهم في عوائدهم وأحوالهم، وتصير لتلك النوافل عوائد ضرورية في

---

(١) الجابري: **فكر ابن خلدون: العصبية والدولة معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي**، (ص٢٣٧-٢٣٨).

(٢) الساعاتي: **ابن خلدون مبدعًا: قراءة جديدة لفكره ومنهجه في علم الاجتماع**، (ص١٩٠).

(٣) الجابري: **فكر ابن خلدون: العصبية والدولة معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي**، (ص٢٣٩).

تحصيلها، وينزعون مع ذلك إلى رقة الأحوال في المطاعم والملابس والفرش والأبنية، ويتفاخرون في ذلك ويفاخرون فيه غيرهم من الأمم، في أكل الطيب ولبس الأنيق وركوب الفاره، ويناغي خلفهم في ذلك سلفهم إلى آخر الدولة، وعلى قدر ملكهم يكون حظهم من ذلك، وترفهم فيه إلى أن يبلغوا ذلك من ذلك الغاية التي للدولة أن تبلغها بحسب قوتها وعوائد من قبلها[١].

ويرى ابن خلدون أن الثراء من أهم عوامل تكوين الحضارات، حيث يسهم في رقة الحضارة عن طريق معالاة البيوت والصروح وإحكام وضعها في تزيينها بالأثاث الفاخر، والتفنن في الترف وإحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه من المطابخ والملابس والمباني والفرش والأبنية وسائر عوائد المنزل وأحواله[٢].

ويرى الباحث أن الأسباب الاقتصادية لقيام الحضارات عند ابن خلدون هي ذاتها الأسباب الاقتصادية التي تؤدي إلى انهيار الحضارات، فالثروة والرخاء الاقتصادي الذي يتمتع به أهل المدن ويجعلهم يدعون إلى الراحة والرقة، هو نفسه الذي يغري أهل البادية بمهاجمتهم للاستيلاء على أموالهم والتنعم بمعيشتهم، فيكون المال والأحوال الاقتصادية سببًا لقيام الحضارات وسقوطها، فالأحوال الاقتصادية لا تسهم في قيام الحضارات إلا إذا كانت هناك قوة تدعمها.

سقوط الحضارات عند ابن خلدون

الأسباب السياسية لسقوط الحضارات عند ابن خلدون

يرى ابن خلدون أن الغاية المنشودة من حركة الدولة هي الحضارة، وهي عين الفساد. فساد الإنسان في ذاته وأخلاقه ودينه، وينتج عن ذلك فساد المجتمع وانحلال

---

(١) ابن خلدون: **مقدمة ابن خلدون**، (ص١٣٢).

(٢) الدوري، عبدالعزيز: **ابن خلدون والعرب: مفهوم الأمة العربية: الفكر الاجتماعي الخلدوني: المنهج والمفاهيم والأزمة المعرفية**، سلسلة كتب المستقبل العربي (٣١)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٨م، (ص١٥٩).

مؤسسات الدولة. وبذلك يعود المجتمع في رحلته التاريخية إلى نقطة الانطلاق. ويتجلى هذا التراجع في طور القنوع والمسالمة وطور الإسراف والتبذير الذي تصاب الدولة فيه بالهرم المؤذن بالزوال[١].

ويرى ابن خلدون أن مرحلة الهدم أسرع من مرحلة البناء بكثير؛ لأن الهدم رجوع إلى الأصل الذي هو العدم، والبناء على خلاف الأصل[٢].

وأهم الأسباب السياسية لسقوط الحضارات عند ابن خلدون:

أ. فساد العصبية

يؤدي صراع المصالح الخاصة إلى فساد العصبية، أي تفكك اللحام الذي جعل من أفراد العصبية الثائرة المسؤولية على الحكم وحدة متجانسة، جماعة يطغى فيها (الأنا الجمعي) ويسيطر فيها (الأنا العصبي) على (الأنا الشخصي). فحين تفسد هذه العصبية، وتنحل هذه الوحدة وتتفكك بسبب دخولها في سباق الجاه المقيد للمال تبدأ الحضارة في السقوط والانهيار[٣].

العصبية تخدم المجموعة، أما الجاه فيخدم صاحبه فقط، وحين يصل الفرد إلى السلطة والملك، ينقلب التناصر إلى تناحر، والتعاضد إلى تخاذل، والكفاح المشترك من أجل المصلحة إلى نزاع وصراع من أجل مكاسب شخصية ومصالح خاصة. وهذا يؤدي في الغالب إلى تفكك الوحدة السياسية التي تجسدها الدولة، لأن الأساس الذي قامت عليه هذه الوحدة قد انقلب إلى عكسها، فالولاء في المجتمع العصبي ليس

---

(١) شعبان: **قراءة جديدة في فكر ابن خلدون: فكر ابن خلدون الحداثة والحضارة والهيمنة**، (ص٨٣).

(٢) ابن خلدون: **مقدمة ابن خلدون**، (ص٣٢٠).

(٣) الجابري: **فكر ابن خلدون: العصبية والدولة معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي**، (ص٢٣٥).

لشخص أو لمبدأ، إنما هو ولاء للمصلحة العامة المشتركة التي يرى فيها كل شخص مصلحته الخاصة[١].

ب. البطش بالعامة لإخضاعهم

إن اتباع سياسات الشدة واستخدام القسوة والبطش والتنكيل بالعامة من أجل إخضاعهم يجلب فجوة كبيرة بين الحكام والمحكومين، ويسهم في إنشاء الحواجز بين الحكام والرعية، ويفضي في النهاية إلى السقوط المريع للحضارة والدولة[٢].

وفي ذلك يقول ابن خلدون: «فإن الملك إذا كان قاهرًا باطشًا بالعقوبات منصبًا على عورات الناس، وتعديد ذنوبهم، شملهم الخوف والذل، ولاذوا منه بالكذب والمكر والخديعة، فتخلقوا بها، وفسدت بصائرهم وأخلاقهم، وربما خذلوه في مواطن الحروب والمدافعات ففسدت الحماية بفساد النيات، وربما أجمعوا على قتله لذلك، فتفسد الدولة ويخرب السياج، وإن دام أمره عليهم وقهره فسدت العصبية لما قلناه أولًا وفسد السياج من أصله بالعجز عن الحماية»[٣].

ج. انقسام الدولة

يؤدي الصراع السياسي والصراع بين السلطة الحاكمة إلى الانقسام وبصفة خاصة في الأقاليم، حيث يستقل كل حاكم بإقليمه عن الدولة المركزية، ما يترتب عليه الضعف والهوان، وقد يؤدي إلى وقوع الحروب الطاحنة التي تستنزف فيها قوى الفريقين،

---

(١) الحبابي: **الديناميكية المحركة للتاريخ عند ابن خلدون: الفكر الاجتماعي الخلدوني المنهج والمفاهيم والأزمة المعرفية**، (ص٩٧).

(٢) أبو زيدون، وديع: **تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي حتى سقوط الخلافة في قرطبة**، مرجع سابق، (ص٣٢٤).

(٣) ابن خلدون: **مقدمة ابن خلدون**، (ص١٨٩).

وتعاني الدولة الانقسام والتشرذم والحروب الطاحنة التي تقضي على الدولة وتضعفها وتسقط حضارتها[١].

وفي ذلك يقول ابن خلدون: «إن أول ما يقع من آثار الهرم في الدول انقسامها، وذلك أن الملك حين يستفحل ويبلغ من أحوال الترف والنعيم إلى غايتها، ويستبد صاحب الدولة بالمجد وينفرد به، ويأنف حينئذٍ عن المشاركة ويصير إلى قطع أسبابها ما استطاع بإهلاك من استراب به (يرتاب ويشك فيه) من ذوي قرابته المرشحين لمنصبه. فربما ارتاب المساهمون له في ذلك بأنفسهم، ونزعوا إلى القاصية إليهم من يلحق بهم مثل حالهم من الاغترار والاسترابة. ويكون نطاق الدولة قد أخذ في التضايق ورجع عن القاصية فيستبد ذلك النازع من القرابة فيها ولا يزال أمره يعظم بتراجع نطاق الدولة حتى يقاسم الدولة أو يكاد»[٢].

د. كثرة القبائل والعصائب الموجودة بالدولة

تؤدي كثرة القبائل والعصبيات التي تقطن الدولة إلى صعوبة السيطرة عليها، وتكثر المشكلات والاضطرابات والنزاعات بين العصبيات المختلفة والقبائل، ويصعب السيطرة عليها وتؤدي في النهاية إلى انفراط عقد الدولة وحضارتها نتيجة سوء الأحوال المعيشية وترديها، وكثرة الحروب وما ينتج عنها من مجاعات نتيجة نقص الغذاء والعلاج[٣].

---

(١) الجابري، محمد عابد: **فكر ابن خلدون: العصبية والدولة معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي**، مرجع سابق، (ص٢٣٥).

(٢) ابن خلدون، المرجع السابق، (ص٢٧٣).

(٣) الحبابي: **الديناميكية المحركة للتاريخ عند ابن خلدون: الفكر الاجتماعي الخلدوني المنهج والمفاهيم والأزمة المعرفية**، (ص٩٥-٩٦).

وفي ذلك يشير ابن خلدون إلى أن كثرة القبائل والعصبيات من أسباب سقوط الحضارة واضمحلالها، حيث يرى أن السبب في ذلك هو: «اختلاف الآراء والأهواء، وأن وراء كل رأي منها هوى عصبية تمانع دونها، فيكثر الانتفاض على الدولة والخروج عليها في كل وقت، وإن كانت ذات عصبية. لأن كل عصبية ممن تحت يدها تظن في نفسها منعة وقوة، وهذا معنى ما يقال في أن أفريقية مفرقة لقلوب أهلها. إشارةً إلى ما فيها من كثرة العصائب والقبائل الحاملة لهم على عدم الإذعان والانقياد»[١].

ويرى الباحث أن الأسباب السياسية لسقوط الحضارات عند ابن خلدون ترتكز على أن الظلم والغبن والتجبر الذي يمارسه الحاكم على الرعية من أهم أسباب انهيار الحضارة وزوالها، لأنه يفقد عصبية العامة فيهربون منه ولا يساعدونه وقت الشدائد، وبغض النظر عن عصبيته التي يمكن أن تنقلب هي الأخرى عنه إذا حاول الاستئثار بالملك وحده.

الأسباب الاجتماعية لسقوط الحضارات عند ابن خلدون

يرى ابن خلدون أن الأسباب الاجتماعية تلعب دورًا مباشرًا في سقوط الحضارات، حيث إن الصراعات التي قد تنشأ بين أفراد الأسرة الحاكمة على الحكم وتقاسم مناطق النفوذ تقود إلى الفرقة والتشرذم الذي يؤدي -في الغالب- إلى نهاية الحضارة وانفراط عقدها.

وأهم الأسباب الاجتماعية لسقوط الحضارات عند ابن خلدون:

أ. الصراع على الحكم

تتجلى آثار صراع المصالح الخاصة في كثرة الخارجين على الدولة، وفي الحروب الأهلية التي لا تهدأ إلا لكي تقوم وتتسع، وما يترتب عليها من نتائج. إن رجال السلطة

---

(١) ابن خلدون: **مقدمة ابن خلدون**، (ص١٣٠).

الحاكمة يتوزعون بعد تمهيد الدولة وتوطيد الملك على الثغور والمناطق البعيدة لكي ينوبوا عن الملك في حفظ الأمن وجباية الأموال. وحين يدخل النزاع والشقاق البيت الحاكم، يكون هؤلاء الولاة أول من يستقل بالأمر، ويخرج عن حكم السلطة المركزية، فتنشأ دول خاصة، وإمارات مستقلة، وتعمل كل واحدة منها على أساس أنها الجديرة بالملك العام، بعد أن انحل ذلك العقد الضمني الذي بموجبه قامت دولتهم أول الأمر. وتقوم حروب أهلية متواصلة تذكيها ثورات العصبيات المغلوبة، ما يضطر معه صاحب الدولة إلى الاستعانة بالموالي والمرتزقة للدفاع عن نفسه، ورأب الصدع في مملكته المتداعية، ويسفر ذلك عن حروب مستمرة وطاحنة، تنهك الدولة وتدمر حضارتها نتيجة ما يسفر عنها من مخاطر لعل من أهمها[١]:

أ. المجاعات التي يتسبب فيها قبض الناس أيديهم عن الفلح (العمل في الزراعة) -في الأكثر- بسبب ما يقع في آخر الدولة من النقصان في الأموال والجبايات، أو الفتن الواقعة من انتفاض الرعايا وكثرة الخوارج لهرم الدولة، فيقل احتكار الزرع غالبًا، وإذا فقد الاحتكار (عدم الاهتمام بالزراعة وقلة العمل فيها) عظم توقع الناس للمجاعات؛ فغلا الزرع وارتفعت أسعاره، وعجز عنه أولوا الخاصة فهلكوا.

ب. كثرة الموت بين أفراد المجتمع بسبب المجاعات، وبسبب الحروب المتواصلة التي تتضمن الهرج والقتل، فتتعفن الجثث وتكثر الأمراض الفتاكة.

ب. ضعف الولاء للسلطة الحاكمة

يؤدي ضعف الولاء للسلطة الحاكمة والخضوع لها خشية بطشها إلى إفساد ضمائر الناس وأخلاقهم، فيلوذون بالفرار من الحاكم، ويتخلفون عن نصرته وقت الشدائد،

---

(١) الجابري: **فكر ابن خلدون: العصبية والدولة معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي**، (ص٢٣٥-٢٣٦).

بل وقد يمالئون الأعداء عليه لإزاحته من ملكه في ضوء ما تعرضوا له من بطش وتنكيل يجعلهم يتمنون هلاكه، وكذلك تخرج القبائل التي تحيط بالدولة عن طاعة الحاكم في حالة ضعفه، وتعمل على فرض قوانينها الخاصة في مناطق نفوذها، وتضرب بعهودها مع الحاكم عرض الحائط، وتعود لممارسة أنشطتها السابقة من سلب ونهب وترويع وهجوم على المدن القريبة منها[١].

وفي ذلك يقول ابن خلدون: «فإن الملك إذا كان قاهرًا باطشًا بالعقوبات منصبًا على عورات الناس، وتعديد ذنوبهم، شملهم الخوف والذل، ولاذوا منه بالكذب والمكر والخديعة، فتخلقوا بها، وفسدت بصائرهم وأخلاقهم، وربما خذلوه في مواطن الحروب والمدافعات ففسدت الحماية بفساد النيات، وربما أجمعوا على قتله لذلك، فتفسد الدولة ويخرب السياج، وإن دام أمره عليهم وقهره فسدت العصبية لما قلناه أولًا وفسد السياج من أصله بالعجز عن الحماية»[٢].

ج. سرعة ظاهرة الحراك الاجتماعي

يرى ابن خلدون إلى أن سرعة ظاهرة الحراك الاجتماعي من أسباب تدهور الحضارات واندثارها، نتيجة اشتعال الصراع بين الطبقات الاجتماعية وما يترتب عليه من مفاسد متنوعة تحمل في طياتها الحرب والصراعات بين الجماعات المتناحرة داخل الدولة، ما يجعل الجميع يهتم بالحرب، وتتضاءل موارد الدولة ويعم الخراب[٣].

---

(١) الجابري: فكر ابن خلدون: العصبية والدولة معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي، (ص٢٣٥).

(٢) ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، (ص١٨٩).

(٣) الذوادي: أضواء على مفهوم الطبيعة البشرية في الفكر الخلدوني: الفكر الاجتماعي الخلدوني المنهج والمفاهيم والأزمة المعرفية، (ص١١٠-١١١).

د. محاولة تغيير عادات العامة وتقاليدهم

يتحقق الاستقرار الاجتماعي باستمرار العامة على العادات والتقاليد التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم، ولذلك فإن أي محاولة لتغيير هذه العادات والتقاليد يواجهها أفراد المجتمع بمقاومة عنيفة قد تتضمن الخروج على الحاكم وقتله أو ممالأة الأعداء عليه[١].

هـ. اختلال التوازن الطبقي

يؤدي اختلال التوازن الطبقي ووجود طبقتين فقط (هما الطبقة العليا (الحكام والموظفين المدنيين وقادة الجيش وملاك الأراضي وكبار التجار) والطبقة الدنيا (كادحي المدن والأرياف» إلى تدهور الحضارة اندثارها نتيجة القضاء على الطبقة المتوسطة وانعدام دورها وفاعليتها اجتماعيًّا وسياسيًّا ودينيًّا. ومن المعروف أن الطبقة الوسطى هي الضمانة الأكيدة للحفاظ على وجود الدولة المركزية لارتباط مصالحها وولائها أفقيًّا وعموديًّا في الحكم المركزي والنسيج الاجتماعي العام[٢].

ويشير ابن خلدون إلى أن الطبقة العليا لا تنصر الحاكم في صراعه، لأن أفرادها يميلون إلى الراحة والدعة نتيجة تأثرهم بالحضارة المفسدة للعمران، فهم ينظرون إلى الأمور نظرة مادية بحتة، ولذلك فهم غير مستعدين للتضحية في سبيل وحدة البلاد أو إنقاذ الملك، فأموالهم هي الضامن الحقيقي لهم ولا يتحركون إلا إذا تعرضت مصالحهم للخطر[٣]، وفي ذلك يقول ابن خلدون: «الرعايا تبع للدولة، فيرجعون إلى خلق الدولة إما طوعًا لما في طباع البشر من تقليد متبوعهم، أو كرهًا لما يدعو إليه خلق الدولة من

---

(١) الوردي: **منطق ابن خلدون**، (ص٢٣٤-٢٣٥).

(٢) أبو زيدون: **تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي حتى سقوط الخلافة في قرطبة**، (ص٣٢٧).

(٣) المصدر نفسه، (ص٣٢٥).

الانقباض عن الترف في الأحوال جميعها، وقلة الفوائد هي مادة العوائد، فتقتصر لذلك حضارة المصر ويذهب منه كثير من عوائد الترف»[١].

وكذلك الطبقة الدنيا الذين يشعرون بتعرضهم للاضطهاد والظلم وسلب حقوقهم باستمرار، فهم لا يتحركون لنجدة الحاكم، فهم مستعبدون سواء في الدولة القديمة أو الدولة الجديدة، وربما يكون لهم الأفضل زوال النظام الحاكم الذي استعبدهم وأدار لهم ظهره وأعاشهم في الفقر والذل والحاجة والفاقة[٢].

ويرى الباحث أن الأسباب الاجتماعية لسقوط الحضارات عند ابن خلدون تأثرت بصورة كبيرة بما تعرض له حين لم يجد العصبية التي توفر له تكوين إمارة أو دولة مستقلة به وبأسرته، بل وشاهد استيلاء البدو على الدولة التي كان يقطن بها بعد انتشار الطاعون وقتله مئات الآلاف من أبناء المدن التي استولى البدو عليها بعد تفوقهم في العدد والقوة على الحضر.

الأسباب الاقتصادية لسقوط الحضارات عند ابن خلدون

يرى ابن خلدون أن الأسباب الاقتصادية تلعب دورًا مباشرًا في سقوط الحضارات، حيث إن مظاهر الضعف الاقتصادي التي تدب في الدولة نتيجة الانشغال عن الصناعة والتجارة والزراعة بالمشاركة في الحرب، أو استيلاء المتحاربين على الأراضي الزراعية وقتل المزارعين وعدم تفرغ العاملين في الحقوق والفلاحين للزراعة، من أهم أسباب الوهن الاقتصادي التي تزعزع أمن الدولة واستقرارها، إضافة إلى اتباع الدولة سياسة فرض الضرائب والغرامات والمصادرات لتوجيهها نحو الأعمال الحربية.

وأهم الأسباب الاقتصادية لسقوط الحضارات عند ابن خلدون:

---

(١) ابن خلدون: **مقدمة ابن خلدون**، (ص٣٤٧-٣٤٨).

(٢) أبو زيدون وديع: المرجع السابق، (ص٣٢٧).

أ. حياة البذخ والترف

تفرض المدينة على سكانها نوعًا معينًا من الحياة يختلف اختلافًا كبيرًا عن نمط الحياة السائدة في البادية. ويكون هذا الاختلاف أكبر وأوسع حين يكون الوافدون على العاصمة هم أفراد تلك الجماعة التي جاءت لتحكم، والتي تعد أن الخيرات والقصور والضياع جميعها التي كانت للدولة المنهارة مغنمًا لها من حقها أن تتصرف به كيفما شاءت. وإن كان الجيل الأول من هذه العصبة الوافدة من البادية إلى المدينة لتحكم وتملك لا يتلاءم بسرعة مع هذا النمط الجديد من حياة الترف والبذخ، فإن الجيلين الثاني والثالث اللذين نشآ في أحضان المدينة وتربيا في القصور والضياع وبين الخدم والحشم، يجدان نفسيهما متلائمين مع حياة الرفاهية، وبما أنهما قد ورثا الملك والثورة معًا فإنهما يندفعان إلى الأنفاق بغير حساب[١].

وفي ذلك يقول ابن خلدون: «إن طبيعة الملك تقتضي الترف، فتكثر عوائدهم وتزيد نفقاتهم على أعطياتهم، ولا يفي دخلهم بخرجهم. فالفقير منهم يهلك، والمترف يستغرق عطاءه بترفه. ثم يزداد ذلك في أجيالهم المتأخرة إلى أن يقصر العطاء كله عن الترف وعوائده، وتمسهم الحاجة وتطالبهم ملوكهم بحصر نفقاتهم في الغزو والحرب»[٢].

ب. تكلفة الحروب

إن الحروب الأهلية ونشوء المنازعات بين أفراد البيت الحاكم، واعتماد صاحب الدولة على البذل والعطاء لكسب الأنصار والمؤيدين هنا وهناك، سواء من أهل عصبيته أو من أهل العصبيات الأخرى، كما أن الاعتماد الكلي على الموالي والمصطنعين والجند

---

(١) الجابري: **فكر ابن خلدون: العصبية والدولة معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي**، (ص٢٣٦).

(٢) ابن خلدون: **مقدمة ابن خلدون**، (ص١٦٥).

المرتزقة، كل ذلك يكلف الخزينة ما لا تحتمله من الرواتب والأعطيات، فعلاقة صاحب الدولة بجنده في هذه الحالة تكون علاقة المؤجر بأجرائه، وبمقدار ما تزداد حاجته إليهم يقوى مركزهم ويتسع نفوذهم وقد يصبحون خطرًا على الدولة ذاتها[١].

إن الحروب الأهلية المستمرة والجنود المرتزقة الذين ينشطون في الطلب في ظل حياة الترف والنعيم التي لا يستطيع صاحب الدولة ولا حاشيته الاستغناء عنها، لكونها صارت لهم خلقًا وجبلة، هذه الأمور تحتاج إلى المال الوفير الذي يضطر صاحب الدولة لتوفيره عن طريق[٢]:

أ. الإكثار من الضرائب والمغارم: وذلك بالزيادة على المقدار الذي تفرضه الدولة من المكوس على المنتوجات والمبيعات، حيث يقوم صاحب الدولة بتكثير الوظائف والعطايا على الرعايا والأجراء والفلاحين وسائر أهل المغارم، ثم تتدرج الزيادة فيها حتى تثقل المغارم على الرعايا وتنهض. على أن نهوض الرعايا سرعان ما يقاومه الجند، فتستمر المغارم في الزيادة حتى تخرج عن حد الاعتدال جملة، فتذهب بذلك غبطة الرعايا في الاعتمار لذهاب الأمل في نفوسهم بقلة النفع.

ب. المصادرات: إذا تقاعس الناس عن العمل، وذهبت غبطتهم في الاعتمار، قلت محصلة الضرائب، وأصبحت الزيادة فيها غير مجدية، وحينئذٍ يقوم صاحب الدولة بالمصادرة العلنية المكشوفة لبعض أملاك المواطنين لاستغلالها في المجهود الحربي.

وفي ذلك يقول ابن خلدون: «إن العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها لما يرونه حينئذٍ من أن غايتها ومصيرها انتهابها من أيديهم.

---

(١) الساعاتي: **ابن خلدون مبدعًا: قراءة جديدة لفكره ومنهجه في علم الاجتماع**، (ص١٩٥).

(٢) الجابري: **فكر ابن خلدون: العصبية والدولة معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي**، (ص٢٣٧-٢٤٠).

وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها انقبضت أيديهم عن السعي في ذلك، وعلى قدر الاعتداء ونسبته يكون انقباض الرعايا عن السعي في الاكتساب. فإذا كان الاعتداء كثيرًا عامًّا في جميع أبواب المعاش كان القعود عن الكسب كذلك لذهابه جملةً بدخوله من جميع أبوابها وإن كان الاعتداء يسيرًا كان الانقباض عن الكسب على نسبته والعمران ووفوره. ونفاق أسواقه إنما هو بالأعمال وسعي الناس في المصالح والمكاسب ذاهبين وجائين»[١].

ج. احتكار التجارة وأنواع من التحايلات: قد تلجأ الدولة إلى مضايقة التجار في تجارتهم بصورة تؤدي إلى إفلاسهم، وذلك عن طريق المصادرات للبضائع أو شرائها بأبخس الأثمان، ثم إجبارهم على شرائها بأسعار مرتفعة، ما يجبر كثيرًا من التجار على القعود عن كسب الرزق وتحصيله، فتكسد الأسواق ويبطل معاش الرعايا، وبالتالي تنقص جباية السلطان أو تفسد، ما يترتب عليه تلاشي الدولة وزوال الحضارة.

د. الخدمة ومصادرة الأعمال: قد يفرض الحاكم وأعوانه الخدمة المجانية على الرعايا في حاجاتهم جميعها من ضروري أو حاجي أو كمالي. وهذا من أشد الظلمات وأعظمها في فساد العمران، لأن «تكليف الأعمال وتسخير الرعايا بغير حق يفسد الرزق، لأن الرزق والكسب إنما هو قيم أعمال أهل العمران، فإذا مساعيهم وأعمالهم كلها متمولات ومكاسب لهم، بل لا مكاسب لهم سواها... فإذا كلفوا العمل في غير شأنهم واتخذوا سخريًّا في معاشهم، بطل كسبهم واغتصبوا قيمة عملهم ذلك، وهو متمولهم، فدخل عليهم الضرر وذهب لهم حظ كبير من معاشهم، بل هو معاشهم بالجملة، وإن تكرر ذلك عليهم أفسد آمالهم في العمارة، وقعدوا عن السعي فيها جملة، فأدى ذلك إلى

---

(١) ابن خلدون: **مقدمة ابن خلدون**، (ص٢٦٩).

انتقاض العمران وتخريبه». أي إن تسخير الناس في الخدمة من أشد أسباب زوال الحضارة.

وفي ذلك يقول ابن خلدون: «كل من أخذ ملك أحد أو غصبه في عمله أو طالبه بغير حق أو فرض عليه حقًا لم يفرضه الشرع فقد ظلمه، فجباة الأموال بغير حقها ظلمة، والمعتدون عليها ظلمة، والمنتهبون لها ظلمة، والمانعون حقوق الناس ظلمة، وغصاب الأملاك على العموم ظلمة. ووبال ذلك كله عائد على الدول بخراب العمران الذي هو مادتها لإذهابه الآمال من أهله»[١].

ويرى الباحث أن الأسباب الاقتصادية لسقوط الحضارات عند ابن خلدون من أشد أسباب انهيار الحضارات وزوالها، سواء أكان ذلك عن طريق حياة الترف والبذخ التي يعيشها الحاكم وأعوانه وتسخيرهم الشعب في الحصول على ما يحتاجونه عن طريق فرض الضرائب الباهظة والاحتكار، والمصادرة التي تهدف إلى إشباع رغبات الحكام والوفاء بالأموال اللازمة لنفقاتهم، أو عن طريق إجبار العامة على القعود عن الكسب بسبب الفوضى التي تشيع في الأسواق وأعمال المصادرة وفرض الضرائب الباهظة والتضييق على التجار، بمصادرة أرباحهم وتجارتهم لصالح الأعمال الحربية والمجهود الحربي، ما يترتب عليه في النهاية فساد العمران، أو سقوط الحضارة واندثارها.

(١) المرجع السابق، (ص٢٧٠).